

عبد القادر الجيلاني بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الأدبية بقلم البروفسورة جاكلين شابي

ترجمة الدكتور حسن سحلول

إننا نكاد نهمل كل شيء عن عبد القادر الجيلاني، وليس في نيتنا إذ نصرح بهذا، أن نعبث بالمفارقات ولكننا نرغب أن نكشف عن حقيقة ظهرت لنا حين بدأنا نهتم بحياة الشيخ عبد القادر التاريخية في القرن السادس الهجري. إن أي شخص درس الإسلام قد سمع ولا شك بالجيلاني، ولكن الإنسان يميل أحياناً إلى أن يعتبر من باب الحقائق البديهية وقائع لم يقم عليها البرهان بعد. ولكن من واجب المؤرخ أن يلتزم الصرامة والدقة، وأن ينظم المعلومات التاريخية حسب ترتيبها الزمني وأن يضعها في مكانها الصحيح من السياق الاجتماعي والتاريخي الذي وقعت به.

والحال أنه يظهر، فيما يتعلق بعبد القادر، أن قد حدث خلط شديد في العصور التاريخية، وأنه قد نظر بعين واحدة إلى واقع متعدد المظاهر تكونه أحداث تنتمي إلى مستويات مختلفة. فدراسة شخصية الجيلاني باعتبارها شيئاً واحداً أمر يثير مسألة معقدة. فالشيخ عبد القادر هو قبل كل شيء ذلك الفرد الذي قضى معظم حياته في بغداد عاصمة الدولة العباسية المتداعية في القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي. وهو كذلك شيخ طريقة صوفية تعرف باسم القادرية، وما تزال تعيش في أيامنا هذه وتمتد من ماليزيا وحتى شمال إفريقيا.

لقد قلنا شيخ الطريقة ولم نقل مؤسسها ولهذا أهميته. ففي الحقيقة يبدو من باب الشطط، حسب معارفنا اليوم، أن نؤكد أن الجيلاني قد أسس القادرية خلال حياته. ويظهر بالأحرى أن هذه الطريقة لم تظهر إلا بعد وفاته. وسمتا شخصية الجيلاني المزدوجة هاتان، أي شخصيته التاريخية وشخصية مؤسس الطريقة تضطربان الباحث الحديث إلى أن يختار بينهما وإلى أن يحدد موضوع دراسته بدقة.

إن دراسة أسطورة شيخ الطريقة من الناحية الاجتماعية والإيديولوجية أمر مشروع كما هو مشروع أن يدرس الشخص نفسه من الناحية التاريخية. وبعد أن يحدث اختيار هذه الدراسة أو تلك ينبغي لنا أن نفصل فصلاً كاملاً بين هذين النوعين قدر الإمكان. وبما أنني اخترت الحديث هنا عن شخصية الجيلاني التاريخية فسأحاول أن أطرح بعيداً كل ما يتعلق بأسطورة شيخ الطريقة، وإلا اختلطت علينا الدروب.

مسألة المراجع

إن أول القضايا وأهمها هي ولاشك تلك التي تتعلق بالمراجع التي يمكن استخدامها ضمن

منظورنا، وعليه فإن أول ما نلاحظه هو أن المراجع المتوافرة لدينا هي كثيرة وشحيحة معاً. فهي كثيرة بخصوص شيخ الطريقة وشحيحة فيما يتعلق بالرجل التاريخي. ويجب أن نضيف إلى هذا أن المعطيات تختلط في أحيان عديدة حتى يصعب أن نميز منها ما يعود لهذا الجانب أو ذاك من شخصية الجيلاني، وأن المصادر التي تضم معلومات عن شخصية الجيلاني التاريخية هي بطبيعة الحال مصادر من القرن السادس، أي إنها مصادر معاصرة ولكنها على أهميتها ضعيفة العدد.

وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد، وأما المصادر المتأخرة، وهي عديدة، فإنها تنتشر من القرن السابع وحتى عصرنا الحديث. ولكنها، باستثناء عدد ضئيل منها، مشبعة كل الإشباع أو بعضه بما سنسميه بالذهنية الطرقية، وهي ذهنية لا تعنى إلا قليلاً باحترام الموضوعية التاريخية كما نراها في عصرنا.

ولأن هذه المصادر تثير مسألة عامة فإننا سنبدأ بدراستها، ولكن قبل أن نشرع بذلك، فإننا نطرح السؤال التالي: كيف تشكلت ذهنية كهذه ثم تعممت حتى أنها حرفت معطيات عصر بكامله، ولو عن طريق تجميلها؟

من السهل أن نفهم الأمر إذا عرفنا أن الحركة الصوفية قد تطورت على نحو لم يسبق له مثيل إطلاقاً في شتى أنحاء العالم الإسلامي وذلك ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس وطوال القرنين اللاحقين. فقد ظهر في تلك الفترة عديد من الطرق الصوفية الإسلامية، ومن أقواها. وأدرك بعضها النجاح وما زال حتى مطلع عصرنا الحديث، حتى إن بعضهم قال فأصاب بأن القرن الثامن هو قرن التصوف في بلاد الإسلام. ولنقارب الصواب مقارنة أكبر نرى أنه يجب القول بأن القرن الثامن هو قرن الطرق الصوفية. وما كان لهذا التطور أن ينجز بدون أن يؤدي إلى نتائج خطيرة في الميدان الإيديولوجي. فالطريقة منظمة وسائل نضالها الأساسية وسائل إيديولوجية، وهي لا تملك وسائل الإكراه المادية لفرض ذاتها، على الأقل علناً. وهكذا ندرك أن للدعاية الهادفة إلى كسب انتساب الأعضاء أو عطائهم دور أساسي في حياة منظمة من هذا الطراز. وأية وسيلة لجذب الأعضاء أو لكسب عطائهم تلجأ إليها طريقة ما أحسن من أن تتخذ لها شيخاً يبلغ من عظمة أفضاله أنها لا تصيب بعد موته مريديه وحسب وإنما تصيب كل من يتشفع به بعد موته بأن يبذل العطاء؟ وعليه فإن كتاب سيرة الجيلاني من أهل الطريقة يقولون بأن أحفاد كل من عاش بقرب الجيلاني أثناء حياته، أو قطع الطريق أمام مدرسته يذهبون مباشرة إلى الجنة، وذلك حتى الجيل السابع منهم. وهكذا فإن تطور تقديس شيوخ الطريقة وإسباغ الفضائل جميعها عليهم راح يتعاظم بقدر ما كان يتعاظم عدد الطرق أو تشتت المنافسة بينها.

وإنه لمن نافع القول أن التاريخ الذي يكتب في سياق طريقة يعظم شأنها أو في وسط مشبع بروح الطرق هو تاريخ يقصد منه قبل كل شيء أن يساعد على انتشار الطريقة وينتهي به الأمر إلى أن تكون له معايير في تقييم تاريخية الأحداث بعيدة كل البعد عن معاييرنا نحن. ولكي نأخذ فكرة عن التطور الناجز، يكفي أن نقارن بين كتابين ينتميان لنوع واحد ونقصد كتابين في طبقات الحنابلة، كتب

أولهما في عصر يمكن أن نسميه عصر ما قبل الطرقية بينما أنشئ الآخر في عصرها. فلقد ألف القاضي أبو الحسين ابن أبي يعلى الحنبلي كتاب طبقات الحنابلة في بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وألف ابن رجب كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، وهو تكملة للكتاب السابق في القرن الثامن/ الرابع عشر. بيد أن الكتابين يشتركان معاً في معالجة مرحلة طولها نصف قرن تقريباً هي الأربعون سنة الأخيرة من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والسنوات العشر الأولى من القرن السادس، وبما أن القاضي أبا الحسين يكتب عن مرحلة يعيشها وابن رجب يكتب عن المرحلة نفسها بعد قرنين من الزمان، فإن المقارنة بين الكتابين مفيدة جداً وتسمح لنا بقياس الطريق الذي قطع بينهما. فنلاحظ مثلاً أن رجلاً يعتبره أبو الحسين تقياً وحسب يصبح في كثير من الأحيان، عند ابن رجب، رجلاً صوفياً من الطبقة الأولى وصاحب كرامات وذا بركة أو يصبح واحداً من الأبدال على قمة هرم الأولياء.

ونحن لا نريد بمثلنا هذا أن نقول ابن رجب كان مؤرخاً بلا ذمة. ولكننا نريد القول بأنه كان متأثراً بعقلية عصره. وكذلك أبو الحسن، فإنه لم يكن بعيداً عن عقلية عصره، أو عن التدين الشعبي، أو عن الإيمان بخوارق الطبيعة الذي ملأ كل القرون الوسطى الإسلامية.

وما نعتقده، ببساطة، هو أن قفزة حقيقية قد وضعت كما وكيفاً بين زمني الرجلين، وأن معاصري ابن رجب أميل إلى إسباغ صفات فوق إنسانية على مظاهر التقوى والورع الكبيرة، وأن هذا الأمر شديد الارتباط بتطور نوع جديد من المنظمات الاجتماعية العقائدية وانتشاره، ونقصد بها الطرق الصوفية. ونحن لا نهدف هنا إلى إقامة الحجة الدامغة في ميدان ما يزال البحث فيه ناشئاً، ولكن أكثر ما نطمح إليه هو أن نظهر بعض الاتجاهات الأساسية فيه. وقد كان يبدو لنا أمراً ذا أهمية أن ندرك خطورة المسألة وقصور أدوات عملنا في هذا الميدان.

وعلى أن نتساءل الآن كيف تجسد هذا التطور في حالة الجيلاني، وكيف انعكست العقلية الطرقية التي ألمحنا إليها على المراجع المتعلقة به. ولقد ظهر لنا أنه ينبغي أن نحدد كيف ومتى تكونت أسطورة الجيلاني شيخاً للطريقة إذا أردنا أن نحصر حقلاً من المعلومات الموثوقة نسبياً والمتعلقة بشخصية الجيلاني التاريخية.

يبدو أن عملية تقديس الجيلاني قد بدأت عقيب وفاته كما تشير إلى ذلك بعض الملاحظات التي استطعنا جمعها، ويظهر أنها انطلقت من أوساط الشافعيين المتصوفين في نهاية القرن السادس/ الثاني عشر. وقد اتهم ابن تيمية، وكان من النادرين الذين ظلوا يتمتعون ببصيرة ثاقبة بخصوص ما يجري، أوساط الشافعيين هذه بالتلفيق بخصوص ابن مرزوق معاصر الجيلاني. ويظهر أن عدداً كبيراً من أنصار الجيلاني من الجيل الثاني بعد وفاته قد سلك منعطف التصوف في النصف الأول من القرن السابع. وعليه فإنه يسعنا افتراض أن أسباغ سمة القداسة قد تقدم خطوات أكبر. ولاشك في أن المؤرخين البغداديين في ذلك العصر من أمثال ابن النجار كانوا متأثرين بعقلية زمنهم. ولكي ندرك الوضع بدقة أكبر يجب أن نضيف أن الحركة التقليدية عامة، والحنبلية منها على وجه الخصوص،

كانت تتطور على نحو شديد تطوراً يشابه ما لمسناه عند أنصار الجيلاني. وهذا التطور هم تماه وتطابق متزايد مع ممارسات أوساط الصوفيين وايدولوجيتهم. ويبدو كما قلنا أن هذا التطور مرتبط بنمو الطريقة، فممارسات كانت تحرم على نحو قطعي كالرقص والسماح تقبل الآن قليلاً قليلاً. ومقاومة هذا التطور تضعف مع مرور الأيام، ويبدو أن هذا التطور قد أنجز في القرن الثامن/ الرابع عشر. وعليه فإننا ندرك لماذا يجب أن نستخدم بحذر بالغ أقوال الكتاب المتأخرين عن عصر الجيلاني، وذلك مهما كانت ميولهم، ولقد رأينا مثلاً الهوة التي تفصل ابن رجب الحنبلي عن كاتب من القرن الخامس كابن أبي يعلى. فهو متأثر كثيراً بالأساطير الشائعة في أيامه حول حنابلة القرون الخالية إلا حين يستشهد بنقد لها عن شيوخ ثقة كابن الجوزي أو ابن تيمية. وتعتبر الفقرة التي يخصصها لموت الجيلاني نموذجاً لهذا النوع من الكتابة. فنحن نجد فيها وقائع تاريخية حقيقية مع مجموعة لا تكاد تصدق من أساطير نسجت في وقت متأخر لخدمة دعاية الطريقة القادرية.

وعليه فنحن مرغمون على اللجوء في المقام الأول إلى كتاب القرن السادس الهجري لنجد أرضاً ثابتة، وفيها يتميز ابن الجوزي الحنبلي البغدادي ممن لم يتأثروا بالعقيلة الطرقية.

وقد مات ابن الجوزي بعد ربع قرن من الجيلاني، ولكن فترة ذبوع صيته تتوافق مع فترة شهرة الجيلاني ولأكثر كتبه قيمة كبيرة في دراسة المرحلة عامة والوسط الاجتماعي والإيدولوجية في بغداد على وجه الخصوص. وهو يذكر الجيلاني صراحة في تاريخه المنتظم وقد كتب رسالة هاجم فيها الجيلاني، ولكنها مفقودة على ما يبدو، بيد أن معاصري الجيلاني الآخرين لا يذكرونه باستثناء السمعاني الذي يذكر حوله أشياء لا قيمة لها. ويجب أن نفسر هذا الصمت طبعاً على أنه مؤشر إلى سمعة الجيلاني في أيامه.

وهناك معلومات أخرى يمكن الاستفادة منها كل الاستفادة وهي المتعلقة بشيوخه من الحنابلة. فأبو الحسين ابن أبي يعلى يعطي عنهم في كتاب الطبقات فكرة هي دون ما سيقال عنهم فيما بعد بكثير. بيد أن لوثائق القرن السادس على ثبوتها عيوباً كثيرة. فهي قليلة وتصدر عن عدد محدود جداً من المؤلفين. وابن الجوزي يشغل بينهم مكاناً واسعاً. وهذا يثير شيئاً من الضيق حين نذكر أن الرجل كان يجحف حق خصومه. ومع ذلك فإن للمعلومات التي يقدمها ابن الجوزي، بصفته معاصراً للجيلاني، مصداقية تاريخية أكبر بكثير من تلك التي يتمتع بها الكتاب المتأخرون. وعليه فإن ألجاناً ضعف المصادر المعاصرة أحياناً إلى كتاب متأخرين من عصر ابن رجب مثلاً، فإن كتاب القرن السادس هم مرجعنا في فصل الخلاف.

المرحلة السابقة لظهور الطرق. القرن السادس | الثاني عشر.

١. القاضي أبو الحسين ابن أبي يعلى، توفي عام ٥٢٦/١١٣١م، صاحب كتاب طبقات الحنابلة. عند وفاته كان الجيلاني يبلغ من العمر ستاً وخمسين سنة، وهو يقيم في بغداد منذ ثلاثين عاماً. ولكن الطبقات لا تذكره بين الشيوخ المعاصرين ولا بين تلاميذ شيوخ الجيل السابق. وهذا الصمت

يؤشر إلى الصيت الذي كان الجيلاني قد بلغه آنذاك. ولكن كتاب الطبقات يفيدنا في معرفة عدد كبير ممن يُعتبرون شيوخاً للجيلاني.

٢. السمعاني: وتوفي عام ٥٦٢هـ/١١٦٠م في مرو. ويذكر محمد التاذفي في كتاب القلائد أن السمعاني يتحدث عن الجيلاني في كتابه ذيل تاريخ بغداد. والواقع أن ما يذكره الذيل من معلومات يطابق ما يذكره بقية الكتاب المعاصرين للجيلاني، إنه فقيه حنبلي ورجل ورع.

٣. ابن الجوزي: وتوفي عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م. وهو أصغر سناً من الجيلاني بكثير. بيد أنه قد ذاع صيته كواعظ وهو حدث شاب. ويمكننا أن نعتبر أن حياة الرجلين متوازية. وليس هناك من ذكر أبدأ للجيلاني في كتب ابن الجوزي العامة ككتاب تلبيس إبليس. ويرى عبد الحامد الألوسي في كتابه الصادر في بغداد عام ١٩٦٥ بعنوان مؤلفات ابن الجوزي أن كتاب الرد على الجيلاني ضائع. بيد أن ابن الجوزي يذكر الجيلاني كثيراً في كتابه المنتظم. ولكن من عام ٥٤١هـ/١١٤٦م حسب رواية ابن رجب وابن خلكان مما يشير إلى أن شهرة الجيلاني قد بدأت تتسع. ونشرح صمت ابن الجوزي هذا بتحيزه ضد الجيلاني. ويتضمن المنتظم معلومات بالغة الخطورة تتعلق ببعض شيوخ الجيلاني وخصوصاً حماد الدباس الذي كان شيخه في الزهد على ما يقال. وقبل أن ننقل للعصر التالي ينبغي أن نشير إلى أن ابن جبير، الرحالة الأندلسي الشهير، وقد كان في بغداد عام ٥٨٠هـ/١١٨٦م، لا يذكر أبدأ الجيلاني الذي كان قد توفي قبل عشرين عاماً تقريباً، لاشك أن المسافرين العابر لا يستطيع رؤية كل شيء، ولكن ربما كان هناك قرينة يحسن بنا أن لا نغفلها.

ولنذكر أخيراً من هذه المرحلة عبد الغني المقدسي المتوفى عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وموفق الدين بن قدامة المتوفى عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م. وقد عرف هذان الجيلاني قبيل موته عام ٥٦١هـ/١١٦٥م حسب رواية ابن رجب. وأن ما يذكره عنهما في كتاب الذيل وعن طريقة حياة الشيخ عبد القادر لأشياء هامة لا تتطابق وما يذكره كتاب الطريقة القادرية. ولكننا لا نجد، وألسفاه، أية إشارة واضحة للجيلاني في كتبهما.

مرحلة الطرق، القرن السابع | الثالث عشر وحتى القرن الثامن | الرابع عشر.

١. ابن الأثير الشافعي الأشعري: توفي عام ٦٣٠هـ/١٢٣٣م. يبدو مناصراً للتطور الطارئة على الصوفية ومعارضاً بحزم للحركة التقليدية. فهو يذكر في كتابه الكامل معلومات حول عدد كبير من الأشخاص تناقض ما يذكره عنها ابن الجوزي.

٢. شهاب الدين السهروردي الشافعي: توفي عام ٦٣٢هـ/١٢٣٤م. وهو من نظر لانضمام الحركة الصوفية المنظمة في أربطة إلى حياة المجتمع الإيديولوجية الرسمية. وكان بذلك الناطق باسم الخليفة الناصر قبل أن يفقد ثقته. وكان له من العمر نحو عشرين عاماً عند وفاة الجيلاني. ونسبة إليه بدأت تظهر بعض الأساطير المتعلقة بالجيلاني. وهو يذكر الجيلاني اسماً في كتابه عوارف المعارف بخصوص زواج الزاهد.

٣. ابن النجار الشافعي: توفي عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م. واحد ممن تابعوا كتاب تاريخ بغداد، ويظهر من النصوص التي نقلتها عنها كتب السير الطرقية أنه قد بدأ يخطط شخصية الجيلاني التاريخية بأسطورة شيخ الطريقة.

٤. ابن عربي: المفكر الصوفي الشهير. توفي عام ٦٤٣هـ/١٢١٠م. يذكر الجيلاني نصاً في كتاب الفتوحات المكية ويبدو أنه يحاول أن يشد إليه سمعة الجيلاني التي أصابته بعد وفاته بولي الإسلام. وقد اتهمه ابن تيمية صراحة بالتلفيق في كتابه بغية المرتاد.

٥. نور الدين الشطنوفى: القارئ المصري الشافعي، توفي في العصر المملوكي عام ٧١٣هـ/١٣١٤م. صاحب كتاب بهجة الأسرار وهو عن حياة الجيلاني من الطراز الطرقي بكل معنى الكلمة. ولقد نقده بشدة كاتب متأخر هو ابن رجب واتهمه بالتلفيق، وكتاب التاذفي قلاند الجواهر هو تلخيص لكتاب البهجة.

٦. ابن تيمية الحنبلي: مات عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. معاد لكل ما يعتبره بدعة. وهو يذكر الجيلاني كثيراً، وبعض معاصريه من أمثال ابن مرزوق ليهاجم التزوير الذي يلجأ إليه تلاذمتهم في أيامه. غير أنه متأثر بعض الشيء بالعقلية الشائعة في أيامه، فنجد مثلاً يلقب الجيلاني بولي الإسلام.

٧. الذهبي: توفي عام ٧٤٨هـ/١٣٤٨م. وهو متأثر إلى حد كبير بالأساطير المتناقلة حول الجيلاني.

٨. ابن كثير: توفي عام ٧٧٤هـ/١٣٧٣م وهو لا ينجو في كتابه البداية والنهاية دائماً خطأ موافقاً للصوفية الطرقية، وهو يذكر الانتقاد حين يجده.

٩. ابن رجب: توفي عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م مؤلف كتاب ذيل على طبقات الحنابلة، ويمكن الاستفادة بشكل عام من كتابه، بيد أنه متأثر بالأساطير الشائعة حول هذا الشخص أو ذلك والتي كان يعتبرها عصره من الوقائع الثابتة. وما يذكره عن حياة الحنابلة اعتباراً من القرن الخامس وحتى منتصف القرن الثامن هو من أهم ما يتوافر لدينا عن تلك المرحلة، ولكن يجب مقارنته دائماً بمصادر أقدم منه.

إن المصادر المتأخرة من هذه الفترة وفيرة، ولكن شخصية الجيلاني التاريخية تختفي فيها خلف شخصية شيخ الطريقة. فهي إذن من مراجع البحث حول الطريقة القادرية وشيخها، ولاتهم الدراسة التي نباشرها هنا.

عبد القادر الجيلاني شخصية تاريخية

بعد أن حاولنا تقييم وسائل البحث ودرجة مصداقيتها، سنحاول الآن أن نحصر شخصية عبد القادر التاريخية. وسيدور البحث بصورة أساسية حول المرحلة البغدادية من حياته. فليس بوسعنا أن نحلم بدراسة المرحلة السابقة لأن مصادر البحث غير موجودة تقريباً، وعليه ستكون ملاحظتنا إذن سريعة حول هذه الحقبة.

الجيلاني إذن فارسي الأصل حسب جميع المصادر، باستثناء واحد منها يجعله من بلاد ما بين النهرين. من بلاد جيلان على ضفاف نهر الخزر، ونسبته، ونجد فيها اسماً فارسياً، تعارض الرواية التي تجعله من بلاد ما بين النهرين. ويبدو أنه من أسرة حديثة العهد بالإسلام، إن أخذنا بنسبه كما يذكره ابن رجب. فاسم عبد الله الذي يذكر لأول مرة عند الجد السادس كان يمنح عادة للمسلم الجديد. وهكذا فإن النسب العلوي مرفوض كذلك. ولم يصلنا شيء موثوق عن طفولة الجيلاني، ويبدو أنه قدم بغداد في نهاية سن المراهقة. وقد كان في بغداد قبل عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م بدون شك، لأن جعفر السراج الذي يذكر ابن رجب أنه كان شيخ الجيلاني في الحديث قد توفي في هذه السنة. وربما كان له من العمر آنذاك نحو الثلاثين عاماً لأن ابن الجوزي يذكر أنه ولد عام ٤٧٠هـ/١٠٧٧م.

الوسط البغدادي

كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية حين وصلها الجيلاني ما تزال تحت سيطرة السلاجقة، وكانت قد اختلفت عليها أيام الهدوء وأيام الاضطراب. ولكن سياسة الأمر الواقع كانت تسود بين الخليفة صاحب السلطة النظرية والسلطان صاحب السلطة الفعلية منذ تولى الخليفة المستظهر الأمر عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ووقوع الخلاف في أوساط الأسرة السلطانية (النزاع بين برقيروق ومحمد بن ملك شاه). ولم يكن الأمر كذلك في الميدان الإيديولوجي حيث كان الاضطراب كبيراً. فقد كان النزاع يشق صفوف السنة منذ قرن من الزمان تقريباً بين الأوساط التقليدية من جهة والحركة الأشعرية الناهضة من جهة أخرى. وكانت الأوساط التقليدية تشمل الحنابلة خصوصاً وبعض ممثلي المذاهب الأخرى، بينما كان الحركة الأشعرية تعتمد على قاعدة محلية وأخرى خارج بغداد، فقد كان عدد من الأشاعرة قد جاء بغداد بصحبة وزير السلطان نظام الملك ثم استمرت حركة الهدرة من المدن الخرسانية إلى عاصمة الخلافة طوال المرحلة التي تهمنا هنا. وكان الفقهاء وخصوصاً الشافعيين منهم، والمتصوفون الأشاعرة أو الوعاظ (وكان هؤلاء ذوي ثقافة محدودة) يجدون في بغداد من يعملون في خدمته. فقد كان من عادة كل حزب سياسي أن يلجأ إلى وسائل النضال الإيديولوجي حين لا يلجأ إلى الوسائل الأخرى. وكان كل حزب ينشر دعواه سواء في أماكن التدريس أو في بيوت الخاصة أو في الأمكنة العامة، ولم يكن النشر يتم دائماً عن طريق الفقه أو الكلام - فقد كان هذان الميدانان يحتاجان إلى دراسة واختصاص - وإنما كان يتم كذلك عن طريق الوعظ. وكان هذا الشكل من التعبير الشفهي يتلقى أي مضمون باسم الدين. ولم يكن يستخدم لنقل الفكر وحسب وإنما كان يستخدم على نطاق واسع لبث دعاية مختلف الأحزاب القائمة، والأحزاب في ذلك العصر أحزاب سياسية دينية. ويدين كثير من الأشخاص بشهرتهم للوعظ. ومن هؤلاء الجيلاني كما سنرى، وقد تطورت كثيراً أشكال مكافأة حملة الإيديولوجية هؤلاء. وهذا يستحق وقفة وخصوصاً أن الجيلاني قد استفاد منها كثيراً. فبالإضافة إلى الإثابة بالنقود أو بالأعطيات ظهر ما يمكن أن نسميه بمفرداتنا الحديثة بمراكز الاستقبال، وهي المدارس بالنسبة للفقهاء والأربطة بالنسبة لأشخاص كثيرين لم يكونوا كلهم أذان متصوفة. فتخصص أربطة بغداد باستقبال المتصوفين المعروفين بذلك ظهر فيما بعد في

نهاية القرن السادس/ الثاني عشر. ولم تكن بغداد أول مدينة تظهر فيها مؤسسات من هذا القبيل، فنحن نراها في مدن أخرى منذ وقت سابق. ولكن ما يثير الاهتمام هو الطابع العام الذي تكتسبه هذه المؤسسات قليلاً قليلاً في بغداد. فلقد صار من الذائع أن يكافأ واحد من حملة الإيديولوجية بأن تعهد إليه مدرسة أن كان له نصيب من الفقه وإلا فرباط حتى لو كان مجرد واعظ. وكانت هذه المؤسسات كوقوف حقاً لا يجوز التصرف به من بيع أو شراء نظرياً. وبطبيعة الحال، فإن هذه القاعدة لم تكن مرعية دائماً. ومع ذلك فإن اضطراب شؤون المدرسة النظامية الدائم كان هو الاستثناء كما يبرهن على ذلك جورج مقدسي. فكان القائم على هذه المؤسسات وأفراد أسرته في مأمن من تقلبات الزمان وغوائل الحاجة، ولم يكن ذلك أمراً هيناً في تلك الأيام. وكذلك فإن استقلال هذه المؤسسات الاقتصادي نسبياً كان يوفر للقائمين عليها إمكانيات للنضال لا تقارن مع ما كانوا عليه قبل ذلك. وكان الأمر يبلغ أحياناً أنهم يصبحون مجموعات ضغط ومراكز قوى. وهكذا فنحن ندرك كيف أن بغداد لم يكن يؤمها طلاب العلم وحسب وإنما أشخاص يبحثون عن الشهرة وذيوع الصيت.

عبد القادر ومرحلته البغدادية

على الأغلب، ومهما يكن الأمر، فإن الجيلاني قد جاء بغداد طالباً للعلم على ما يظهر. وقاسى فيها شظف العيش كما تخبر المصادر الطرقية التي تصفه لنا وهو يأكل الأعشاب البرية. وما تقدمه هذه المصادر على أنه مران صوفي يجب أن يفهم بالأحرى على أنه ضرورة الحاجة. ويتضح من لائحة شيوخه الذين يذكرهم ابن الجوزي وابن رجب أن الجيلاني كان حنبلياً. وإن فلم يكن له أن ينعم بما كانت المدارس والأربطة تقدمه لنزلاتها، فقد كانت جميع هذه المؤسسات قد أنشأها في ذلك الوقت أعوان السلطان، وكانوا خصوماً للحنابلة، ويظهر إذن أن الجيلاني قد عاش حياة طالب فقير، ودرس الحديث والفقه حتى التقى، في تاريخ لا نستطيع تحديده برجل يعتبر شيخه الأكبر في الفقه هو أبو سعد المخرمي الحنبلي المتوفى عام ٥١٣هـ/١١١٩م. فكان لقاء حاسماً. فالمخرمي هذا يعرف بأنه حنبلي أنشأ مدرسة. ومدرسة الفقه هذه كانت تتضمن ككل المؤسسات المماثلة غرماً يقيم بها الطلبة وكانت تمنحهم معاشاً. وقد أقيمت هذه المدرسة في باب الزج بعد أن عين المخرمي كقاض في هذا الحي عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م. ونحن نجهل ألقام الجيلاني في مدرسة شيخه هذه أم لا؟، وأن الخبر الموثوق الوحيد الذي وصلنا عن تلك المرحلة نقله ابن رجب بخصوص ابن المندى الأصفهاني. فهو يروى أن الجيلاني قد استمع إلى الدروس التي ألقاها ابن المندى هذا حين مر ببغداد في بداية القرن السادس/ الثاني عشر. وكل هذا مألوف. ويظهر أن سمعة الجيلاني وله من العمر ثلاثون عاماً كانت معدومة تماماً. ولنذكر مثلاً أن أبا الحسين لا يذكره بين تلاميذ المخرمي في كتابه طبقات الحنابلة وأن الروايات التي تجعل المخرمي ينقل إلى الجيلاني خرقه التصوف أوهام وأباطيل. فالمخرمي. حسب معاصريه حنبلي ككثيرين غيره وليس ها هنا بنقل الخرقه. ومات المخرمي عام ٥١٣هـ/١١٢٠، وكان قد عزل من الإفتاء قبل عامين من ذلك. واتيهم بأنه اختلس شيئاً من أموال تعود لأوقاف الأضرحة، وغرم بها. ونحن نجهل ما آلت إليه المدرسة بعد موت صاحبها. ويقول ابن الجوزي بأن

إدارتها قد عهدت للجيلاني، ولكنه لا يذكر تاريخاً. وهذا أمر ثابت، فمدرسة شيوخه ستصبح له ولأحفاده. ولكنه يبدو مستبعداً أن تعهد إليه في ذلك العهد وهو مغمور الشأن تماماً أو يكاد. ويبدو أقرب إلى العقل أن نلتزم هنا بما يذكره مؤرخوه الطرقيون نقلاً عن ابنه عبد الوهاب. وهو يذكر أن أباه لم يدرس الفقه إلا اعتباراً من ١١٣٣هـ/١١٣٣م أي بعد بضعة سنين من اشتهاه كواعظ. وتبقى السنوات التي تفصل بين موت المخرمي وظهور الجيلاني كواعظ عام ١١٢٧هـ/١١٢٧م سنوات يحيطها الغموض ولا يسعنا إلا أن ننشئ فرضيات بخصوصها. والجيلاني لا يفقد أكبر شيوخه في الفقه، وربما عونه على الحياة المخرمي وحسب وإنما اثنين من شيوخه الحنابلة الخطرين ونقصد أبا الخطاب الكلوزاني وتوفي عام ١١١٦هـ/١١١٦م. وأما الثاني فهو الشيخ الرهيب ابن عقيل الذي مات عام ١١١٩هـ/١١١٩م. لقد أذنت لحظة التحول في تاريخ الجيلاني ولاشك، ونرى أن علاقاته المحتملة مع حماد الدباس البغدادي المعروف والمشهور بالمعجزات قد نشأت خلال هذه السنوات. وحجتنا أن ابن الجوزي حين يهاجم حماداً بقوة وشراسة فإنه يستند إلى ابن عقيل. ويبدو من المستبعد أن يخالط الجيلاني، وهو تلميذ ابن عقيل، إن صح أنه طلب العلم على يديه، شخصاً كحماد دون أن يثير غضب شيوخه عليه. والمصادر الطرقية، من جهة أخرى، تعزز من هذه الفرضية حين تذكر أن أتباع الدباس قالوا له حين انضم إليهم: ماذا تفعل هنا يا فقيه؟ والإشارة صائبة. فكثير من متصوفي ذلك العصر كانوا يجهلون الفقه تماماً. وكان الدباس واعظاً وصانع أعاجيب ومبريء أمراض ومفسر أحلام معاً. وكان ذا صيت واسع يجعله مصدر رزق لعدد كبير من أعوانه كما يذكر ابن الجوزي. وإذن يعقل أن نفترض أن الجيلاني قد تقرب من الدباس بعد أن أمن غضب شيوخه واستكثارهم. وحماد الدباس الذي يترزق بسمعته كصاحب أعاجيب يمثل في تاريخ التصوف الحلقة التي تتوسط بين الزاهد المنعزل الذي يعيش بفضل سمعته كناسك ولكنه بدون أتباع وبين رجل الطريقة المنخرط في رباط. بيد أنه لو قبلنا بأن علاقات قد قامت بين الدباس والجيلاني، فنحن لا نقبل بطبيعة الحال الأساطير الكثيرة الخارقة للطبيعة التي نسجت حول هذه العلاقات.

مرحلة الشهرة ١١٢٧هـ - ١١٢٧م - ١١٦٥هـ - ١١٦٥م

إن أول إشارة تاريخية أكيدة بخصوص الجيلاني نجدها عام ١١٢٧هـ/١١٢٧م، وهي تعود إلى ما سنطلق عليه بداية مرحلة ذبوع صيته. هذه المرحلة تمتد خلال أربعين عاماً وللجيلاني في بدايتها خمسين عاماً وواحداً وتسعين عاماً في خاتمتها. لقد أصابه النجاح وقد تقدم في العمر، ولكن ذلك لم يكن أمراً نادراً في تلك الأيام. وكان نجاح ابن الجوزي الباكر، إذ كان له عشرون عاماً تقريباً، هو الأمر النادر. وقد بلغ الجيلاني الشهرة، مثل كثير من معاصريه، عن طريق الوعظ. وقد اختار معسكره واعترف معسكره به فظهر كحامل لواء الحركة الحنبلية التقليدية معارضاً أبا الفتوح الاسفاريثي صاحب رباط أرجوان الأشعري، وكانت أقواله قد أثارت جدلاً كبيراً في بغداد ذلك العام. ويذكر ابن الجوزي فيقول: وظهر عبد القادر واتخذ مجلساً في الحلبة، والتم إليه أهل السنة فغلبوا بفضلهم.. والحلبة هذه مكان مكشوف كان من عادة الوعاظ أن يجتمعوا فيه. ولندكر أن الشيخ العلوي

الأسبوع. فكان يقصد المدرسة صباح الجمعة ومساء الثلاثاء. وأما صباح الأحد فكان يجلس في الرباط (ويقصد المكان المكشوف من الحلبة، لأن الجيلاني لم يتسلم رباطاً أبداً، كما سنرى فيما بعد). وقد ظل هذا ديدنه طوال أربعين عاماً من عام ٥٢١هـ، وحتى ٥٦١هـ. وقد علم الفقه وأفتى طوال ثلاثة وثلاثين عاماً من سنة ٥٢٨هـ وحتى موته. وكان يساعده قارئان وأحياناً ثلاثة خلال جلسات الوعظ. وكان يرتل القرآن ترتيلاً ولا يلجأ للتجويد. وهكذا نلاحظ أن الحقيقة بعيدة عن الصورة التي يقترحها مؤرخو سيرته الطريون، والذين لا يعبؤون بالتناقضات والذين يصورون الجيلاني على أنه شيخ رباط ذو أعوان يصعب إحصاؤهم يقودون جيشاً من الأنصار الذين ينشرون تعاليمه في شتى بقاع العالم. وقد عاش الجيلاني وأهله من أملاك وقف المدرسة ولا يسعنا الشك في هذا الوقف ولا في أهميته. ويظهر أن هذا الوقف قد أثار حسد ابن الجوزي نفسه. ويذكر ابن رجب حادثة وقعت بعد موت الجيلاني مفادها أن ابن الجوزي انتزع إدارة المدرسة من أولاد عبد القادر عندما ارتقى ابن يونس الوزارة، وكان يبغض أسرة الجيلاني، ولكن ابن الجوزي أرغم على إعادتها لهم عام ٥٩٠هـ/١١٩٣م اثر تغيير الأوضاع. وكان ذلك أمراً شائعاً في تلك الأيام. واتهم حفيد الجيلاني عبد السلام ابن الجوزي بأنه أنفق عائدات المدرسة على شؤونه الخاصة. ونحن لا نعرف إلا القليل عن حياة الشيخ عبد القادر طوال الخمس عشرة سنة التي أعقبت تسلمه لإدارة مدرسة المخرمي. ويظهر أنه قام بتوسيع المؤسسة وإصلاحها بفضل مساعدة مناصريه وإعطياتهم. وقد نسجت حول هذا أساطير كثيرة على دأب الطرق. ولكننا نجد عند ابن الجوزي الخبر الوحيد الذي يخص هذه المرحلة، ويتعلق بسنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م ومفاده أن رجلاً صالحاً من حي باب الأرج مات، فاجتمع الناس للصلاة عليه في مدرسة عبد القادر. وحين هموا بغسله عطس فإذا هو حي. وكان آخر قد مات في الوقت نفسه فصلى عليه الذين جاؤوا من أجل الأول. إن هذه الحادثة الصغيرة تشير إلى استمرار حياة الجيلاني على ما رأينا، وإلى انتشار صيته في حي باب الأرج حيث كان يسكن، إن لم يكن في بغداد كلها.

ويظهر أن حياة الجيلاني ومحيطها ظلا على ما هما عليه حتى وفاته دون تغيير يذكر. ولكننا نلاحظ أن شهرته قد اتسعت من عام ٥٤١هـ/١١٤٦م إن أخذنا بما يقوله ابن الجوزي وابن رجب وابن خلكان. وهذا التطور يماشي تعزيز سلطة الخليفة المتزايد وتزايد محاولاته للسيطرة على أدواتها وخصوصاً الإيديولوجية منها. وإن فان ما يشغلنا الآن هو مسألة العلاقة بين الجيلاني وبين السلطة السياسية في عصره.

والأخبار الموثوقة المتوافرة بين يدينا لا تطابق هنا كذلك الصورة الشائعة عن الجيلاني كمعارض سياسي. فقد استدعي الجيلاني للمرة الأولى على ما يبدو إلى مسجد القصر لإقامة الصلاة على الميت عام ٥٤١هـ/١١٤٦م في شهر ربيع الثاني. وكان ذلك على روح شخص معروف هو عبد الله بن علي القاريء الأديب النحوي الحنبلي وحفيد الحنبلي الشهير أبي منصور الخياط الذي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس/ القرن الحادي عشر. ولهذا الأمر معناه في تلك الأيام. فمسجد

القصر موجود داخل أسوار القصر، أي أنه لابد من رضى الخليفة لدخوله، وسنرى الخليفة فيما بعد يمنع الفقيه الشافعي يوسف الدمشقي من دخول المسجد. وكان يوسف هذا شيخاً في المدرسة النظامية عينه فيها السلطان بغير رضى الخليفة. وسيظهر الأمر بوضوح أكثر كتكريم للجيلاني حين نصف الجو السياسي آنذاك. فلقد ارتقى المقتفي الخلافة عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م بعد عزل الراشد وخلعه، مما جعله تابعاً إلى درجة عالية للسلطان ولوزيره الجديد علي بن طراد. ولكنه سيسعى منذ ذلك إلى التخلص من هؤلاء الذين ساعدوه وهم يطمعون بأنه سيكون العوبة بين أيديهم، وسيلجأ من أجل ذلك إلى شتى الوسائل. وإذا كانت الوسائل المادية للضغط ما تزال تنقصه فإن المقتفي يلجأ إلى وسائل الصراع العقائدي. فهو يأذن مثلاً لابن العبادي الواعظ الشافعي الأشعري بالوعظ في مسجد القصر عام ٥٤١هـ/١١٤٦م ويقره في ذلك رغم ضغوط الغزنوي الواعظ الذي كان يخطب في المسجد نفسه، ويشكل قوة حقيقية في بغداد آنذاك. ولكنه كان من جماعة السلطان. أي أن الخليفة لعجزه الحالي عن مجابهة الغزنوي يثير عليه من يتصدى له. وعليه فإن وجود الجيلاني الذي ينتمي لحزب ديني يناصر الخليفة وفي قصر الخليفة وفي مناسبة رسمية لا يفسر إلا على أنه دليل على حظوة عند الخليفة. وهذا جزء من خطة كان الخليفة يتبعها لضعاف السلطان ولاستعادة سلطته. ولنذكر كذلك بأن الخليفة سيسوزر ابن هبيرة في السنة التالية وكان معروفاً بأنه من الحزب التقليدي. بل وثمة أكثر من ذلك، فلو ذكرنا كيف عامل الخليفة ووزيره حملة الإيديولوجية من أنصار السلطان حين سحنت لهما الفرصة لأدركنا أنه من المشكوك به أن يكون الجيلاني معارضاً نشيطاً لسلطتهما آنذاك ولظهر عكس ذلك تماماً، وإن الجيلاني قد ناصر خطة الخليفة كأغلب أعضاء الحزب التقليدي. ولنأخذ على سبيل المثال قضية ابن المخرم التي يذكرها المؤرخون الطرقيون لدعم مزاعمهم بمعارضة الجيلاني للخليفة. ونجد في كتاب القلائد ما مفاده كان الجيلاني يوبخ من عين الرجال الظالمين. وحين عين المقتفي القاضي ابن المخرم وكان ظالماً، قال وقد اعتلى المنبر: لقد أدلت أعناق المسلمين لأنكر المظالم. ماذا تقول غدا لرب العالمين؟ فأجهش الخليفة بالبكاء وعزل القاضي لتوّه. والحقيقة أن هذا الشخص قد عينه المقتفي قاضياً ومنحه صلاحيات واسعة. ويظهر أن الغاية الحقيقية من ذلك كانت محاربة أبي القاسم الزيني قاضي القضاة وآخر ممثل لحزب الوزير. ويروي ابن الجوزي أن ابن المخرم كان رجلاً لا ضمير له ولا تهمة الوسائل لبلوغ غايته، وكان يركض وراء الثروة وعرف عنه أنه يرتشي. ولكن المقتفي أبقاءه في منصبه لأنه كان يولي النتائج عناية أكثر مما يولي الاستقامة وكان شديد الإخلاص للنظام. ولم يعزل من منصبه إلا في أيام المستجد خليفة المقتفي.

وتظهر لنا في مناسبتين طبيعة علاقة الجيلاني بسلطة شديدة الاهتمام بفرض رقابتها الإيديولوجية التي سبق لها أدواتها. فقد توفي المحدث الشهير عبد الأول بن عيسى أبي الوقت في بغداد عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م وكان قد جاءها من هراة عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م. وكانت بغداد بأكملها تؤم مجلسه حين كان يحدث نقلاً عن صحيح البخاري ومسلم. فأما الجيلاني الناس في صلاتهم على روحه في مسجد القصر. وأهمية هذه الحادثة أكبر من تلك التي ذكرناها سابقاً. فمن الناحية السياسية

نحن الآن في زمن تخلص فيه الخليفة من كل قيد أو وصاية بعد أن عاقب خصومه بشدة بالغة، وكان بينهم أشخاص بلغوا من الشأن مبلغاً لم يبلغه الجيلاني قط. فإن عهد إلى الجيلاني بصلابة بالغة الأهمية كهذه فذلك لشهرته ولرضى الخليفة عنه. وهذه الخطوة التي ظهرت مرتين على الأقل أيام المفتي لن يفقدها الجيلاني بعد عام ١١٦٠هـ/١١٦٠م، فقد خلع المستجد الأتواب وبذل العطايا حسب العادة بعد انقضاء شهر الحداد على أبيه. وكان ابن الجوزي من بين من أصابته عطايا الخليفة. وهو يذكر من غمره شرف الخليفة، ويسمي الجيلاني في رأس لائحته. ونحن لا نملك أية معلومات موثوقة حول المرحلة التالية باستثناء الرواية التي أشرنا إليها والتي تذكر أن الجيلاني يستمر في التدريس والإفتاء حتى آخر أيامه. ويبدو أن الجيلاني قد بلغ قمة الشهرة ولا شك عام ١١٦٠هـ/١١٦٠م، وذلك في جميع الميادين. وحظوته عند الخليفة الجديد هي تتويج لحياته وبرهانه على انطوائه الإيجابي للمجتمع القائم تحت سلطة الخليفة. ونريد أن نختم مقالتنا أن تشير إلى مجموعتين من الملاحظات، تتعلق الأولى بأسطورة ما تزال قائمة لا تجعل من الجيلاني مديراً لمدرسة وحسب وإنما صاحباً لرباط كذلك، وتتعلق الأخرى بعلاقة الفقيه الحنبلي بالتصوف.

أسطورة الجيلاني صاحب رباط

فحول هذه النقطة، نحن نرى أن الجيلاني لم يكن أبداً صاحب رباط وإن كان صاحب مدرسة. فلو كان الأمر غير ذلك لوافق أحسن الموافقة ما نسب إليه بعد موته كصاحب طريقة. وهذا الرباط المزعوم يثير الحيرة منذ الوهلة الأولى. فنحن لا نجد في تاريخ ذلك العصر أية إشارة لموقع هذا الرباط أو لتاريخ تأسيسه أو للتنازل عنه. ودراسة مصطفى جواد الهامة الحديثة حول أربطة بغداد لا تشير أبداً، على سعة مصادرها، إلى رباط ربما أداره الجيلاني. ويظهر أن نحل رباط للشيخ الجيلاني يعتمد على المعطيات التالية. فابن الأثير مؤرخ القرن السابع الهجري الثالث عشر ينسب إلى الجيلاني إدارة مدرسة ورباط في الفقرة التي يخصصها له. ولقد رأينا أنه لا يمكننا الثقة بآب الأثير حول موضوعنا. ويذكر ابن رجب من القرن الثامن/الرابع عشر في ذيله مرات عديدة رباط الجيلاني، ولقد رأينا أنه يتأثر بالعقليات الطرقية. ويبدو أن اختلاطاً قد وقع بخصوص هذا الرباط المزعوم، فقد وجد بدون شك رباط في باب الحلبة بالقرب من سور المستظهر، وفي المكان نفسه الذي كان يجلس فيه الجيلاني للوعظ. ولكنه وجد قبل أن يبدأ الجيلاني جلساته. فابن الجوزي يذكره في عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م ولأننا لا نعرف عن مؤسسه شيئاً ولا عن المستفيد منه، ولا عن نشاطه، فهل نحن واتقون بأنه كان رباطاً للمتصوفين؟ إن قصة كلمة رباط وتاريخها لم يكتبها بعد، فهل نحن واتقون بأن هذه الكلمة لا تعني شيئاً آخر غير ما نتصوره؟ وثمة خلط آخر ينتج عن ابن رجب. فهو يذكر أن سعد بن مرزوق أقام في رباط الشيخ عبد القادر حين قدم بغداد عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م لدراسة الفقه فيها. ويبدو أن ابن رجب لا يعني حقاً رباط الجيلاني الذي لم يوجد قط وإنما هو رباط أسسه واحد من أتباعه الحنابلة وهو أبو التثاء محمود النعال، وكان موقعه في حي باب الارج كمدرسة الجيلاني، وكان يسكنه فقهاء الحنابلة الذين جاؤوا بغداد للعلم وللإقامة. وليس في هذا ما يثير الاستغراب. فرباط

النعال، وهو من أول الأربطة الحنبلية، كان يقوم بنفس الوظائف التي كانت تقوم بها أربطة الحزب الآخر المعادي. فرباط أبي سعد مثلاً كان يستقبل باستمرار فقهاء ووعاظاً خراسانيين أثناء مرورهم ببغداد. وكذلك فنحن نستطيع أن ننتبج آثار مدرسة الجيلاني وانتقالها في ذريته حتى أواسط القرن السابع/ الثالث عشر، وكان على رأسها آنذاك حفيده عبد الرزاق، ولكن لا نجد أحداً يذكر انتقال رباط في ورثته. وعليه فإننا نستطيع أن نجزم بعدم وجود رباط أداره عبد القادر، ولكن هذا لا يعني أن رباطاً قادرياً لم يوجد فيما بعد.

عبد القادر الجيلاني والتصوف

إن آخر مسألة نثيرها هنا تخص علاقة الجيلاني بالتصوف. فمؤرخو حياته الطرقيون والمراجع القريبة من القادرية تؤكد أن معاصري الجيلاني كانوا يقدسونه بصفته صوفياً وولياً للإسلام، ويزورونه، وينذرون له، وأنه كان ذا كرامات وأتباع مريدين لا يحصى عددهم، وأحوال اختص بها. وبمعنى آخر، فقد كان صاحب معجزات يحسن استغلالها، وصاحب طريقة صوفية يضاهي أشباهه من حيث درجة التصوف ومن حيث كثرة الأتباع. ولقد رأينا أن الوقائع التاريخية الثابتة لا تعزز هذه المزاعم، فابن الجوزي، وهو مرجعنا الأول بصفته معاصراً للجيلاني، يذكر هذا الأخير على أنه واعظ مشهور وفقه حنبلي معروف بزمهده. وليس في هذا ما يشير العجب من رجل ينتمي للحركة التقليدية. وكثير من رجال هذا الوسط كانوا يوصفون بالزهد لورعهم ولقيامهم بالنوافل. ولكنه لا يذكر الجيلاني أبداً بصفته صاحب كرامات أو معجزات، بل وهو لا يذكر أبداً ما تذكره المصادر المتأخرة من علاقة الجيلاني وحمام الدباس مما يثير التساؤل حول حقيقة هذه العلاقات. ونحن نعتقد أنه لو عرف الجيلاني حقاً بذلك لما لزم ابن الجوزي الصمت حوله وكان خصماً له، كما أنه لم يلزم الصمت حول الدباس أو حول كثير من معاصريه. ويظهر أن علاقة الجيلاني بالتصوف هي من باب العلاقة الفكرية أكثر منها من باب السلوك اليومي، وإنها لم تتصف بالتطرف على أية حال. ورد ابن الجوزي على الجيلاني يتعلق على الأغلب بالنقاش الإيديولوجي فإن كانت علاقة الجيلاني بالتصوف هي ما شرحناه، فإننا سنجد صياغتها في كتابيه الهامين اللذين وصلا إلينا: "الغنية لطالب طريق الحق"، والكتيب الذي يذم مواعظه بعنوان "فتوح الغيب"، وليس من شك على ما يبدو حول صحة هذا الكتيب الذي جمع مادته ابن الجيلاني عبد الرزاق، لأن ابن تيمية نفسه قد قام بشرحه. وبطبيعة الحال، فإننا لن نستطيع أن نخصص لعلاقة الجيلاني بالتصوف، في دراسة كهذه، كل ما تحتاج إليه من شروح طويلة، ولكننا نستطيع أن نصوغ بعض الملاحظات وأن نشير إلى ما يجمع فكر الجيلاني بمستقبل التصوف الطرقي.

فبينما كانت الحركة الصوفية تتسع بنشاط وتتهياً بفضل تشكلها في طرق لأن تزيد من نموها كانت أفكار الجيلاني تتفق بدون أي شك مع اتجاه التطور هذا، بل ونستطيع أن نقول أنه كان واحداً من أهم من توسط في القرن السادس/ الثاني عشر بين الحركة الصوفية والحركة التقليدية التي كان

ينتمي إليها، وأنه كان ممن بفضلهم تبنت الحركة التقليدية خلال القرنين اللاحقين منعطف الطريقة. إن الجيلاني ولاشك تبني موقفاً غير واضح وكان متحفظاً حول بعض المسائل الحساسة كتخليد الرقص والسماع أو تحريمهما، ولكن هذا الأمر يتعلق بالمظاهر الخارجية ومن ثم ليس بذي أهمية تذكر. ولكن الجديد الذي يمس جوهر المسألة هو ابن الجيلاني ينظر بعين العطف للمتصوفة على أنهم هيئة اجتماعية ودينية مستقلة. فالمؤلفات التقليدية، حتى ذلك الوقت، لم تكن تنظر إلى هذه الفئة من المؤمنين المتصوفين على أنهم طائفة خاصة وكان لهم وضع المسلم العادي بصفة عامة سواء أكان رجلاً من أهل السوق أم من الخاصة أم من العلماء. ولم يكن التصوف ليناقد فيها على نحو خاص إلا في القسم المتعلق بشذوذه وبتجاهاته المستنكرة وذلك تحت عنوان البدع. ولكن كتاب "الغنية" يعالج المريدين المتصوفين أو شيوخهم على انفراد، ويطبق عليهم معايير خاصة مختلفة عما ينطبق على غيرهم. فهو لا يقبل مثلاً أن يعيش المتصوفون من تصوفهم وحسب كما يعيش غيرهم من وسائل الكسب الأخرى، ولكنه يبيح لهم السؤال في ظروف خاصة في حين أنه يحرمه قطعاً على عامة المؤمنين. وهكذا فليس للمتصوفين ميزات في الميدان العقائدي وحسب وإنما لهم ميزات اجتماعية واقتصادية تتعلق بوسائل العيش. وكان لهذا نتائج بعيدة.

فإنه من الواضح أن الحركة الصوفية الطريقة ما كان لها أن تظهر ثم تتطور وتندمج لولا هذه الميزات الاقتصادية ضبطاً. وكان هذا منعطفاً كبيراً. ولنذكر أن الحركة التقليدية كانت تأبى أن يعيش المؤمن، زاهداً كان أو لا من راتب ما، حتى لو كان راتب معلم، وإنها كانت ترى أن على كل مؤمن أن يمارس حرفة يدوية أو مهنة في السوق. وكان السوق آنذاك مكاناً تظهر فيه الفضيلة. ولكن السوق سيكون بالنسبة للجيلاني ومعاصريه مكاناً للفساد. وكان أهل الكسب يشغلون أدنى الدرجات وأحطها.

إن الجيلاني لا يتحدث عن مؤسسة الرباط في الغنية، ولا يشير إليه إلا ليذكر أنه لن يصف عادات المتصوفين المقيمين به. ونستطيع أن نشرح تحفظ الجيلاني هذا بأن تطور الحركة الصوفية لم يكن قد اكتمل بعد، وبأن الحركة التقليدية التي كان ينتمي إليها كانت تتحفظ أمام هذا الطراز الجديد من الحياة. ولنذكر أن أول رباط حنبلي ظهر في النصف الثاني من القرن السادس/ الثاني عشر. أي أن الأمر كان في مرحلة التجريب ونادراً في زمن الجيلاني. ولن نتخصص الأربطة على نحو نهائي بالمتصوفة إلا في وقت متأخر يبدأ مع خلافة الناصر. إن الجيلاني ولاشك واحد ممن قطعوا خطوة حاسمة لإقامة وضع خاص بالمتصوفين في الميدان الفكري. وأما أنه لم يذكر ما هي الأشكال التي ستظهر فيها أفكاره فهو أمر ليس بذي شأن، لأن الأجيال التالية ستتكفل بذلك طوال القرن السابع/ الثالث عشر.

وهكذا يظهر عبد القادر الجيلاني الذي عزمنا على دراسة شخصيته التاريخية بعيداً عما يصوره المؤرخون الطريقة كشيوخ للطريقة، وهو أمر صحبه بعد وفاته. وإن لم يكن للجيلاني علاقة بشيخ طريقة كثير الأتباع، أو بصاحب معجزات يرتجف أمامها الخليفة، فإنه يظهر رجلاً ينتمي إلى عصره كل الانتماء. ولم يكن نجاحه المتأخر قائماً على التصوف وإنما كان بفضل استخدامه بفطنة لا تضل

ما كان يُشهر في أيامه إلا وهو الوعظ. وقد عرف كيف يقوي من نجاحه دون أن يكف عن الوعظ بأن أصبح مديراً لمدرسة ثم شيخاً في الفقه، وهو منصب ثابت ويدر عليه مالا كثيراً ظل عليه حتى آخر أيامه.

وأما على الصعيد السياسي فقد ارتبط بالحركة التقليدية منذ ذاع صيته، فتبنى مواقفها كواعظ في وقت عصيب وظل على ذلك حتى وفاته. وكانت تلك الحركة الدينية السياسية نصير الخلافة، فسامهم الجيلاني في إحياء سلطة الخليفة وتعزيزها معاً. ولم يكن أبداً معارضاً للخليفة بعكس ما تدعيه المصادر الطرقية، بل كان صاحب حظوة عنده بصفته من صناع الإيديولوجية. ويمثل الجيلاني إذن على المستوى التاريخي رجلاً مندمجاً في عصره عرف كيف يقتنص فرص النجاح. ولكن شهرته اللاحقة لا تقوم على هذا طبعاً.

فإن كان نجاح الجيلاني في القرن السادس/ الثاني عشر نجاحاً مثالياً، فإن نجاحاً أكبر وأعظم ينتظر المفكر الذي ينشئ نظاماً خاصاً بالمتصوفة سواء على المستوى الفكري أو في ميدان ظروف المعيشة، ونجاحه بعد موته يدعيه متصوفو الحركة التقليدية كما يدعيه الشافعيون،/ حتى إن بعضهم يجعل منه أمام الشافعيين والحنابلة في عصره ببغداد. ولا يعود هذا النجاح إلى أن أفكاره قد رافقت واحداً من اتجاهات عصره الكبرى في الحقل الاجتماعي والإيديولوجي وحسب وإنما يعود كذلك إلى أن هذا الاتجاه قد نجح على شكل حركة طرقية خلال العصور اللاحقة. فكان من الطبيعي إذن أن يقر هذا الاتجاه بفضل الجيلاني كواحد ممن مهدوا له الطريق، وأن يبني له تلك الشهرة الواسعة التي عرف بها بعد موته. أن توافق أفكار الجيلاني هذا مع منحى في التطور كان يبشر بالحركة الطرقية القادمة لم يجعل من الجيلاني شخصية هامة ومعبرة عن عصره وحسب وإنما جعل منه كذلك واحداً من أكبر رواد الحركة الطرقية.



.. جاكلين شابي.. مستخرقة واختصاصية بتاريخ العصر الوسيط الإسلامي ورئيسة قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة باريس الثانية. فرنسا.

.. حسن محلول أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة ليون الثالثة. فرنسا.

